الطفولة في عالمنا المعاصر

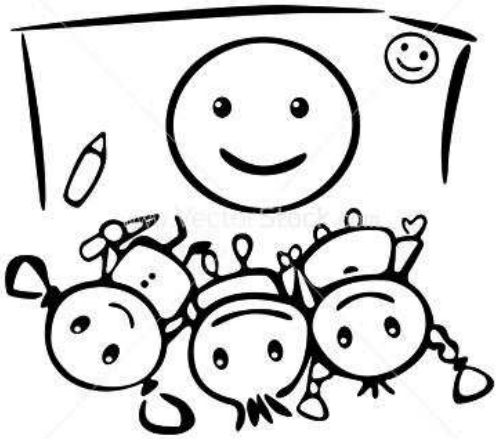

أخذت الطفولة في الآونة الأخيرة ، تحظى باهتمام عدد كبير من العلماء ، في مختلف فروع المعرفة والعلوم الإنسانية ، وكل فريق منهم يحاول أن يفهم الطفل ، ويسعى إلى تحقيق التوازن بين حاجاته والحياة الاجتماعية العامة ٠

وهذا الاهتمام بالطفل والطفولة ، من الباحثين والمفكرين ، يبشر بأمل في تقدم حقيقي لتحقيق مزيد من الرفاهية ، فمن ناحية تساهم المعرفة العلمية لسلوك الأطفال ، وكيفية نموهم ، في تحسين مستوى الإنسان ، وتساعد على تقدمه ، ومن ناحية أخرى يعد الفهم الواضح السليم للطفل ، الخطوة الأولى في تكوين نظرية واضحة عن السلوك الإنساني ٠

ولكن الدراسات التي تهتم بالطفل ، لا تسير على أرض معبدة سهلة ، فهي تواجه مشكلات عديدة ، تتطلب مزيداً من البحث والاستقصاء ، ابتداء من النمو الجسدي والنفسي والاجتماعي للطفل ، مروراً باكتسابه المفردات اللغوية ، وانتهاء بنمو اتجاهاته الاجتماعية والسياسية والثقافية ٠

والمهتم بالطفولة ، كما يدرس الأطفال في البيئة السوية الصالحة ، لا يستطيع أن يتجاهل البيوت المفككة من مشكلات ، ولابد أن يغمض عينيه عن الآثار التي تترتب على انصراف الوالدين وانشغالهما عن تنشئة أولادهما ، أو إغفال توجيههم التوجيه السليم

، كما لا يستطيع أن يتغاضى عن النتائج التي تنجم عن التفكك الأسري ، فقد أظهرت بعض الدراسات أن الاستقرار الأسري في طور الرشد يعتمد إلى حد كبير على أنماط التوافق والتكيف التي تتكون في طور الطفولة ، كما أوضحت دراسات أخرى ، أهمية التدريب على تنمية السلوك الحركي والتفكير المجرد المناسب ، باعتبارهما أمرين مطلوبين في عصر (التكنولوجيا) ٠

وقد درج المجتمع الإنساني ، على التفرقة بين فئات الأعمار المختلفة داخل نسق القرابة ، وفي مراحل التعليم ، وخلال المشاركة الجمعية ، كما يميز بين فئات السن داخل نسق المهنة ٠ وعلى الرغم من أن حدود السن ليست جامدة ، بل تقريبية إلى حد ما ، فإن ذلك لا يقلل من أهميتها البنائية ، وأول مركز يشغله الشخص العادي ، في البناء الاجتماعي ، هو مركز الابن الطفل في نسق الأسرة ، ويحدد المجتمع لهؤلاء الأبناء الأطفال ، حقوقهم وامتيازاتهم وواجباتهم ، كما أنهم يتميزون بألعابهم المفضلة ، وطرقهم الخاصة في التعامل مع الآخرين ، ولهم أغانيهم وحكاياتهم وقصصهم ونوادرهم ٠

وقد حدد المجتمع بوضوح ملامح مجتمع الأطفال على هذا النحو ، إلا أن المسؤولية ليست من السمات التي يتميز بها عالم الأطفال ، إذ يتميزون بعدم المسؤولية ، والاعتماد على الكبار ، وعدم الاكتراث بالنظام ، لكنهم ينفردون بالتعاون التلقائي العفوي بينهم ٠ ومن الحقوق التي حددها المجتمع للأطفال حديثاً ، القوانين التي تلزم بتعليمهم ، والقوانين التي تحرم تشغيلهم قبل سن معينة ، والتي لا تسمح لهم بالدخول في أماكن العمل ، وحتى إذا سمح لهم بالعمل ، فقد حدد المشرع عدد ساعات تشغيلهم ، والفترة التي يعملون فيها ٠

ويولي معظم العلماء السلوكيين ، اهتماماً زائداً لدراسة مهام عملية التنشئة في طور الطفولة ، أثناء عملية التفاعل بين الطفل ووالديه ، والمسؤوليات الو الدية في طور الطفولة ، ومن بعدها مسؤوليات المدرسة الابتدائية ، التي تحدد بدورها المعايير الاجتماعية ٠

المسؤوليات الاجتماعية للوالدين

لقد حدد علماء التربية ، المسؤوليات الاجتماعية ، التي يتعين على الوالدين أن يحققانها إذا ما أرادا لابنهما الطفل ؛ أن يعيش مقبولاً من أبويه ومن الآخرين ، وهذه المسؤوليات هي :

١ – توفير العون والتربية للطفل ٠

٢ – إعلاء الحاجات الفيزيولوجية وتوجيهها ، مثل الحاجة إلى الطعام ، والحاجة إلى الإخراج ، ليحقق التكيف مع الوالدين ولمواجهة المعايير الثقافية ٠

٣ – تعليم الطفل وتدريبه على المهارات ، وإتاحة الفرصة لممارسة المهارات الحركية والقدرات العقلية ، والمهارات الاجتماعية ، بما يكفل له الحماية وتعزيز الأمان ، وتنمية القدرات والإمكانيات على أداء السلوك المستقل ٠

٤ – توجيه الطفل إلى عالم الأصدقاء توجيهاً مباشراً ، وإلى المجتمع المحلي والمجتمع الأكبر ، من خلال مجموعة من المواقف الاجتماعية ٠

٥ – نقل مجموعة من الأهداف الثقافية والقيم ، ودفع الطفل نحو الأهداف الو الدية والاجتماعية ٠

٦ – إبراز المهارات الشخصية وصقلها ، والاهتمام بمشاعر الآخرين والاستجابة لها ٠

٧ – ضبط مجال سلوك الأطفال ، وتحديد الأخطاء وتصويبها ، وتقديم النصح والتفسيرات لهم ٠

وتحدد معايير كل مجتمع أغلب هذه المسؤوليات والمهام ، فالمجتمع عادة يحدد كيف ومتى يقوم الوالدان بهذه المهام ؟ ومن منهما يؤديها ؟ فمثلاً على الأم أن ترضع صغيرها وتغذيه ، وعلى الوالدين معاً أن يستثمرا الوقت والجهد لمراعاة أولادهما ، ويتأكدا من أنهم يتعلمون مهارات خاصة مقبولة ، ويتحاشون أنماطاً معينة من السلوك الخاطئ ، في سن معينة ٠

وتبدأ هذه الجهود للوالدين ، في فترة مبكرة جداً ، قبل أن يعي الطفل بها ، إذ يبدأ الوالدان في التحدث إلى طفلهما ؛ بلغة يحددها إدراك الطفل للعالم الخارجي ، ليعرفاه

بوضوح من نحن ؟ وماذا نريد ؟ وما يجب علينا أن نفعله ؟ فعلينا أن نسلك مع الآخرين سلوكاً لائقاً ، وما إن يبدأ الطفل يعي العالم الذي حوله حتى تبدو تعليمات والديه أكثر تحديداً ، وأكثر دلالة ٠

مراحل الطفولة

ثمة تحديدات كثيرة لمراحل الطفولة، وإجمالاً تقسم مرحلة الطفولة إلى خمس مراحل فرعية ، وهي :

١- مرحلة ما قبل الميلاد (الجنينية) : وتمتد من بداية الحمل حتى الولادة ٠
٢- مرحلة المهد (الفطام) : وتمتد من الولادة حتى نهاية السنة الثانية ٠
٣- مرحلة الطفولة المبكرة : وتمتد من سنتين إلى ست سنوات ٠
٤- مرحلة الطفولة المتوسطة : وتمتد من ست سنوات إلى تسع سنوات ٠
٥- مرحلة الطفولة المتأخرة : وتمتد من تسع سنوات إلى بداية سن المراهقة ٠

ونستطيع أن نقول إن الطفولة تضم الأعمار التي تمتد ما بين المرحلة الجنينية ومرحلة الرشد ٠ وهي مرحلة الاعتماد على النفس ، وتعبر بالفرد من مرحلة العجز والاعتماد على الآخرين ، بدءاً بأولياء الأمور إلى مرحلة الاعتماد على النفس ، تبعاً لقدراته واستعداداته وتنشئته الاجتماعية ٠ وهذا يعني أن الطفولة تختلف وتتباين من جيل إلى جيل ، ومن ثقافة إلى أخرى ، ومن مجتمع إلى آخر ، طبقاً لمتطلبات بيئة الفرد ٠

وعلى الرغم من أن الاهتمام بالطفولة قديم ، لكن الدراسة العلمية لها حديثة العهد ، فقد كانت الدراسات الأولى كشفية ووصفية ، فمثلاً كان الاهتمام منصباً على مراحل نمو الطفل ، وصفات كل مرحلة من هذه المراحل ، ولكن الدراسات التي تلت ذلك تجاوزت مرحلة الكشف والوصف ، إلى البحث في العلاقات السببية ، أي علاقة ظاهرة بأخرى أو علاقة متغير بآخر،

وظهرت إلى جانب هذا كله ، الدراسات الميدانية ، التي اعتمدت أساليب أخرى ، إضافة إلى أسلوب الملاحظة ٠

فقد اعتمدت الدراسات الميدانية طرقاً ، قادت إلى الموضوعية ، وإلى إيجاد بعض المقاييس التي وفرت معرفة علمية موضوعية عن الطفولة ٠ كما تناولت الدراسات بالبحث والتمحيص ، الجانب النفسي الذي يتعلق بشخصية الطفل ، والجانب الذي يتعلق ببناء المجتمع ؛ من خلال بعض مؤسساته وجماعاته ، مثل الأسرة ومجموعة الأصدقاء ووسائل الإعلام ٠ وعلى هذا الأساس فقد ظهرت دراسات تعنى بالطفل ضمن الأسرة ، وأثر ظروف الأسرة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فيه ، ولم تقتصر الدراسات علة الأسرة فحسب ، بل تجاوزت ذلك لتشمل دار الحضانة والمدرسة والبيئة ، وأثرها جميعاً في الطفل ٠ ولهذا فإن دراسة الطفل ليست من اختصاص علم أو فرع من فروع المعرفة ، وإنما هي مجال اهتمام جميع العلوم الإنسانية ٠

أهمية الطفولة

لقد أصبحت النظرة إلى الطفل في العصر الحاضر ، أعم وأشمل ، بعد تطور الأبحاث في علم نفس الطفل ، وطرائق تربيته ، وأساليبها ٠ وأصبح الطفل خلافاً لكل النظريات السابقة التقليدية ، كائناً حياً يولد مزوداً ببعض الخصائص العضوية و(الفيزيولوجية) وله حاجاته (البيولوجية) والنفسية ، التي يعد إشباعها ضرورياً لبقائه ونموه ، وهو يعيش في وسط اجتماعي لا غنى له عنه ، عليه أن يتعلم كيف يتوافق معه كي يسد حاجاته النفسية والاجتماعية ٠

وضمن هذه النظرة المتقدمة إلى الطفل ومفهوم عالمه ، فقد احتلت الطفولة أهمية كبيرة لدى المعنيين بشؤون الطفل وتربيته خاصة ، ولدى الجهات الرسمية والشعبية عامة ٠ هذه المرحلة التي تعد من أخطر المراحل وأدقها ، في وضع السمات العامة ؛ النفسية والاجتماعية والعقلية ، لشخصية الفرد ، وتكوين اتجاهاته وقيمه وأساليب سلوكه في الحياة ٠

وتشكل الطفولة مرحلة هامة وضرورية لذاتها ولما بعدها ٠ فهي هامة لذاتها لأنها تعد مرحلة متميزة في حياة الفرد ، وهي هامة وضرورية لما بعدها ، نظراً لأن الأساس المتين

يؤدي إلى بناء متين ٠ وبما أن طفل اليوم ، هو رجل المستقبل ، كان من الطبيعي أن تكون الخبرات التي يتلقاها ، والمهارات التي يكتسبها ، ذات أثر بالغ في تكوين شخصيته من جوانبها المتعددة ٠ هذه الشخصية ، التي ستلعب دوراً فعالاً في حياته اللاحقة كلها ٠

(فعالم الأطفال عالم خاص يعرف بالعالم المغلق ، ونحن إذا ما أدركنا أن تركيبنا النفسي والاجتماعي و البيولوجي ينشأ من هذه المرحلة ، أدركنا سر اهتمام الدول المتقدمة بالأطفال ، وعنايتها بهم) (٤) ٠ ذلك لأن الطفولة تمثل أهم المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته ، حيث يكون الطفل فيها (أكثر استعداداً وميلاً للتقبل والتعلم والابتكار ، فهو يرى ويسمع ويفهم ويتذوق ، ويحاول اكتشاف العالم الذي يعيش فيه ، من خلال الأدوات والوسائل التي تتوفر له وتكون في مستوى تفكيره) (٥) ٠

وأخيراً ، لقد أخذت الدول تعمل باتجاه التقدم والازدهار ، تضع في حساباتها الأولى ، أولية العناية بالطفولة من جميع جوانبها ، وأصبحت العناية بالطفل تحظى باهتمام الأفراد والمؤسسات الاجتماعية والرسمية ٠ ولكي يكون التوجه إلى الطفل صحيحاً ، يجب أن ينطلق هذا التوجه من المعرفة الدقيقة لظروف هذا العالم المتميز ، النفسية والاجتماعية والتربوية ، في إطار يسهم في بناء شخصية متكاملة ٠

وتعد دراسة الطفولة من الدراسات الصعبة ، نظراً لأنها تواجه مشكلات منهجية وموضوعية ، إذ لا تزال أدوات البحث في مجال الطفولة تفتقر إلى كثير من الدقة والموضوعية ، بسبب صعوبة إخضاع الأطفال ، إضافة إلى عدم قدرة الباحث على ضبط جميع العوامل ، التي يمكن أن تؤثر في الظاهرة المدروسة ٠

وثمة عوامل كثيرة ، دفعت الباحثين والمختصين لدراسة الكيفية التي ينمو بها الأطفال ، والشروط اللازمة لنموهم والسلوك الصادر عنهم ، ومن هذه العوامل ما يلي :

١- الحركة العلمية في ميدان علم النفس التي بدأت بطابع فلسفي وانتهت بمنهج يعتمد على التجربة والبحث والملاحظة ٠
٢- اهتمام علماء النفس بالدوافع البشرية وأثرها في عملية التعلم ٠

٣- التقدم العلمي في مجال البحث والقياس النفسي وما رافق ذلك من تقدم في مجالات مقاييس الذكاء والاستعدادات والقدرات ٠

٤- توجه التربية الجديدة ، وتركيزها على الكائن البشري من حيث أنه كل متكامل ٠ وبدأ الاهتمام بهذا الكل الذي يشمل الجوانب الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية ٠

وبناء على ما تقدم ، فقد أصبح الطفل القاعدة الأساس ، في كل عملية اجتماعية تربوية ، من شأنها إعادة بناء المجتمع وتقدمه ، ذلك لأن الطفل هو رجل المستقبل ، وعليه مسؤوليات البناء والتطور ، ومن هنا احتلت الطفولة مكانة بارزة في عالمنا الحالي ، وفي الدراسات المعاصرة ٠

المصدر

(١)د٠ محمد سعيد فرح : الطفولة والثقافة والمجتمع ، منشأة الإسكندرية ، ط (١) ١٩٨٠م ، ص ١٥

(٢)المرجع السابق ، ص ٢٢

(٣)د٠ نايفة قطامي ، ود٠ محمد برهوم : طرق دراسة الطفل ، دار الشروق ، عمان ط (١) ١٩٨٩م ، ص ١٦

(٤)راجع بحث (ثقافة الطفل في الوطن العربي : بهاء الدين الزهوري) مجلة المعرفة السورية ، العدد (٢١٤-٢١٥) ١/ ١٩٨٠م ، ص ١١٠

(٥)محمد الجزائري : أدب الأطفال في المواجهة ، المؤتمر الثاني عشر للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب بدمشق ١٩٧٩م ، الجزء الثاني ، ص٢٤٤

(٦)د٠ نايفة قطامي ، ود٠ محمد برهوم : طرق دراسة الطفل ، ص ٢١

http://egycastle.blogspot.com